

إعتدال الرسول (ﷺ) في معاملته مع الأعداء والمخالفين

طالب الماجستير

زبير حسين زهي

قسم اللغة العربية وآدابها - جامعة سيستان وبلوشستان - إيران

zobeyr.hosseynzehi@gmail.com

الدكتور

محمد الشيخ

أستاذ في قسم الأدب العرب - جامعة سيستان وبلوشستان - إيران

Sheikh-m20@yahoo.com

**The Prophet (peace and blessings of Allah be upon him)
maintained moderation in his treatment of his enemies and
opponents**

Zobeyr Hossein Zehi

**MSc in Arabic Language and Literature , University of Sistan and Baluchistan
, Iran**

Dr. Mohammad Sheykh

**Assistant Professor, Department of Arabic Language and Literature ,
University of Sistan and Baluchestan , Iran**

Abstract:

Moderation means being kind and tolerant of all people, forgetting their mistakes, accepting their apologies and not blaming them for their mistakes and it is one of the principles that sustain the world through them.

All of these attributes have been manifested in the best and most perfect way in one person, Muhammad peace and blessings of Allah be upon him.

In this brief essay, it has been attempted to portray the moderate reader and the moderation of the Prophet (peace and blessings of Allah be upon him) and his way of life, so that the reader will obtain the correct insight and cognition after reading it and know that the Messenger of Allah was at the height of justice, mercy, and moderation.

In the first part of the article, the tortures and hardships faced by the Prophet (peace be upon him) from his enemies, then the guidance he gave to his emirs, followed by the Charter of Judgment and Arbitration with them.

The final part of the article is also dedicated to comparing the justice of the Prophet (peace be upon him) with justice other than his own.

It is necessary to clearly show the Prophet's justice, his interaction and compassion to his enemies and opponents in personal and social life, his battles as it is to followers of other religions.

Key words : Moderation , Moderation in behavior , Prophetic Ethics , Interaction with Infidels ..

الملخص :

«الإعتدال والوسطية» من الأصول التي قامت بها العالم، ومعناه أن يلاطف المرء مع الناس جميعا، أن يعفو عن خطايا الآخرين و يقبل عذرهم ولا يلاومهم علي أخطائهم، وهذه الأوصاف كلها تجلت بأكمل صورها وأجلها في شخص واحد هو محمد (ﷺ)، لم تعرف البشرية شبيهة بها علي مر الدهر، حيث تتجلي عظمة و عبقرية و رحمة و حكمة منقطع النظير.

هذه المقالة الوجيزة تسعى أن يبرز للقارئ الكريم الإعتدال والوسطية في حياة الرسول ويعرض حياته للقارئ حتي يكون علي بصيرة في مستقبله و يعرف عدالته ورحمته و وسطيته- التي كان (ﷺ) في القمة من ذلك- فقد ذكر الباحث أولا تعذيب الذي واجه من قبل أعدائه ثم ذكر توجيهاته (ﷺ) لأمرائه و منشور القضاء عنده وفي الأخير قارن بين عدالته و عدالة غيره من أصحاب الديانات وسائر الأمم ولقد رأي الحاجة ماسة أن يقوم بإلقاء الضوء علي عدل النبي وتعامله ورحمته مع أعدائه و مخالفيه في سيرته العطرة ، - وقد يتجلي كثيرا في غزواته- ليظهر سيرة واقعية من حياة النبي للعالم كله.

الكلمات الرئيسية : الاعتدال - الوسطية في السيرة - الأخلاق النبوية - التعامل مع الكفار .

المقدمة:

قد يرجع الفضل الكبير الي الرسول الكريم في توحيد الأمة العربية الاسلامية لأول مرة في تاريخها تحت راية الإسلام الذي تمكن في خلال فترة لا تتجاوز ٢٣ سنة فمعلوم أنه لم يكن فردا عاديا ولم يكن كما يصوره بعض الكتاب والمؤرخين مقاتلا، لا يرحم ومعاديا ينتصر لنفسه فإننا في أشد الحاجة لمعرفة المنهاج النبوي في معاملته مع الأعداء والمخالفين حتي نلتمس من هديه الطريق الصحيح في دعوتنا ، ومعاملتنا ، ونقيم بنياننا علي منهجية سليمة -إن شاء الله-.

فيأتي موضوع هذه المقالة في وقت تنتهك فيه الحرمات وتُداس فيه كرامة الإنسان في الحروب ونري من جانبٍ ، وحشية ، وهمجية ، وقتلا و تشريدا من قبل رؤساء الحكومة و يأمر أحدهم و يقول : دمروا كل من يقف أمامكم ، بدون فرق بين موقع ومنزل ورجل وامرأة و طفل وشيية ، وأفطروا علي دمائهم وجشهم و يأتي هذا الموضوع كالماء للأرض الظمائي ، فأحري لهذا العالم أن يقف وقفة تأمل مع سيرة النبي وقفة مسلم واع لأن المسلمين يتهمون بالإفراط في دينهم ويقول الكفار في حقهم : هذا ما علمهم نبيهم من القتل والتشريد. لقد رأيت حاجة ماسة أن أقوم بإلقاء الضوء علي عدل النبي وتعامله و رحمته مع أعدائه ومخالفيه في سيرته المباركة ، - وقد يتجلى كثيرا في غزواته- ليظهر سيرة واقعية من حياة النبي للعالم كله.

كما استشهدت بأقوال علماء الغرب المنصفين في مواضع من المقالة ، لنلعل علي أن عقلاء الغرب لم يخف عليهم سابقة رسول الله في ترسيخ العدل و الرحمة مع الأعداء و المخالفين ومن ثم حملت القلم بلغة يفهمها الغرب ، أملا في أن تصل رسالة هذه المقالة إلي جماهير المستشرقين ، لاسيما في ظل حملة التشويش والإساءة التي تولي كبرها هؤلاء المستشرقين في حق خير البرية وفي وقت تكالبت فيه الأقلام المسمومة والألسنة الحاقدة للنيل من مكانة رسول الله.

إضافة إلي استخدام المقالة أسلوب المقارنة في بعض المشاهد؛ ليظهر سماحة النبي و عدله و بشاعة الغزوات دونه و ظلهم.

أسئلة البحث

- ١- كيف كان تعامل النبي (ﷺ) مع الأعداء والمخالفين؟ هل واجههم كسائر الأمراء والملوك أم تعامل معهم كنبى كريم وأب رحيم؟
- ٢- هل له نظير ومثيل في العالم البشرية قبله وبعده من بين الأمراء والقادّظ في هذه التعامل اللامثالية؟
- ٣- ما هي النتيجة و الثمرة من هذه الرحمة و العدالة مع الأعداء، هل أثرت عليهم و جعلتهم من محبيه و مفديه؟

الفرضيات

- ١- يبدو من هذه العجالة بأن النبي الكريم (ﷺ) هو المثل الأعلى في العدالة و الرحمة بين محبيه و مخالفه.
- ٢- يبدو في هذه المقالة بأن الرسول الرحيم قد استطاع أن يؤثر علي أعدائه و مخالفه بأخلاقه الكريمه و عدالته و اعتداله أكثر من مغازيه و حروبه مع الكفار.
- ٣- تجلي من هذه القمالة أنه لم يكن في صدد الانتصار و الانتقام و يبدو هذا بوضوح في سيرته كلها خاصة في الطائف و الحنين و فتح مكة بأن الحبيب عفا عن جميع الكفار و كيفما تنظر ألي الحبيب و إلي منهجه لا تري أمام عينيك إلا الرحمة و العفو و الوسطية بأسمي صورها.

سابقة البحث و ضرورتها

يمكن أن تذكر منها ما يلي:

- إن اعتدال الرسول (ﷺ) و وسيطيته كانت موضوع أبحاث كثير من الباحثين و له آفاق واسعة حيث لا يوجد كتاب ألف و صنّف في حياة الرسول إلا و قد جعل شطرا من كتابه في هذا المجال و لكن نشير باختصار إلي بعض منها:
- ١- الرحمة في حياة الرسول (ﷺ) للدكتور راغب السرجاني، كتاب رائع مفيد قد استوعب بطريقة مركزة لأهم جوانب الشخصية المحمدية، و ذلك بأسلوب ممتع، و قد ترجمه باللغة الفارسية و سماه: پیام آور رحمت الأخ محمد حنيف حسين زايي، كان

طالبا في مرحلة ماجيستر في جامعة سيستان و بلوشستان، و طُبع ترجمتها بدار السنة تاياد-خراسان.

٢- نبي الرحمة (ﷺ) للدكتور محمد أحمد المبيض، هذا الكتاب هو لون جديد في السيرة النبوية، تضمن تفصيلا لبعض مظاهر الرحمة النبوية، منها نبي الرحمة و الأمة، نبي الرحمة و العقوبة، نبي الرحمة و مسوغات المواجهة العسكرية، و لا يخلو من كثير النفع لو قام أحد الإخوة الأدباء بترجمته إلى اللغة الفارسية.

٣- هل كان محمد رحيمًا للدكتور محمد حسام الدين الخطيب من دمشق، من الكتب المفيد في هذا الفن و قام المؤلف بشرح و بسط في موضوع الرحمة و الاعتدال لنبينا الكريم، قد ترجمه باللغة الفارسية الأخ عبيدالله البراهوي، المسمي ب«رسول رأفت و رحمت».

والجدير بالذكر أن مدلول العدل والسماحة يتضح جليا بعد دراستها حسب الخطة التالية:

❖ إيذاء النبي من جانب أعدائه.

❖ وصايا النبي لأمرء السرايا والجوش.

❖ كيفية معاملة الأعداء والمخالفين قبل الإسلام وبعده.

❖ عدالة النبي في مقابلته مع الأعداء والمخالفين.

إيذاء النبي (ﷺ) من جانب أعدائه:

أذى قومه و عشيرته والمشركين: إن الأذى الذي وجه إلي رسول الله (ﷺ) من قبل قومه ينقسم إلي قسمين:

الأذى المعنوي المتمثل باللسان :

إن الأذى المعنوي الذي وجه لرسول الله أذى مختلف وبيانه كما يلي :

وصفوه بالجنون و السحر والكذب والافتراء؛ لقد ذكر الله تعالى هذا الأذى الموجه إلي النبي من قومه في آيات عديدة.

الأذى الحسي :

لم يكتف كفار قريش بالأذى المعنوي فحسب بل تعدى كثير منهم علي النبي فأذوه أذى حسيا و نذكر هنا نماذج من ذلك:

«قال ابن هشام: حدثني بعض أهل العلم: أن أشد ما لقي رسول الله (ﷺ) من قريش أنه خرج يوماً فلم يلقه أحد من الناس إلا كذبه وأذاه، لا حر ولا عبد، فرجع رسول الله (ﷺ) إلى منزله، فتدثر من شدة ما أصابه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدِينَةُ كُونِي بَرًا وَتَكُنِي لِرَسُولِكَ وَتَقِي لِرَسُولِكَ﴾ (المدر: ٢-١). (ابن هشام، ٢٠٠٥: ٢٦٢).

١- أذى عقبة بن معيط: أ- ثقل في وجه الرسول فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ يعني عقبة. وقوله فلاناً: يعني أبي بن خلف.

٢- وضع فرث الجزور عليه وهو ساجد: «و هذه قام بها أشقي القوم عقبة بن أبي معيط بالتأمر مع رؤساء قريش، حيث اغتتم فرصة صلاة النبي (ﷺ) عند الحجر وإطالته في السجود فعمد إلى فرث جزور فوضعه علي كتفه وهو ساجد، فأقبلت فاطمة بنت محمد (ﷺ) حتى ألقّت ذلك عن عاتق أبيها ثم استقبلت قريش تسبهم، فلما قضى النبي (ﷺ) صلاته دعا عليهم قائلاً: اللهم عليك بأبي جهل وعقبة وشيبة» (المبيض، ٢٠٠٨: ٦٩-٧٠).

٣- ومن أذى المشركين للنبي كسر رباعيته وجرح وجهه يوم أحد: «عن سهل رضي الله عنه: أنه سئل عن جرح النبي (ﷺ) يوم أحد فقال جرح وجه النبي (ﷺ) وكسرت رباعيته وهشمت البيضة على رأسه وكانت فاطمة (عليها السلام) تغسل الدم وعلي يمسك فلما رأت أن الدم لا يزيد إلا كثرة أخذت حصيراً فأحرقت حتى صار رماداً ثم ألقته فاستمسك الدم». (بخاري، ١٤٢٢: ٣، ١٠٦٦).

٤- ومن أذى المشركين للنبي اجتماع جماعة من كفار قريش لضربه: قال عروة: قلت له - عبد الله بن عمرو بن العاص -: «ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابت من رسول الله (ﷺ) فيما كانت تظهر من عداوته؟ قال: قد حضرتهم وقد اجتمع أشrafهم في الحجر فذكروا رسول الله (ﷺ) فقالوا: ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من هذا الرجل قد سفه أحلامنا و شتم آبائنا و عاب ديننا و فرق جماعتنا و سب آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم أو كما قالوا فيناهم في ذلك إذ طلع رسول الله (ﷺ) فأقبل يمشي حتى استلم الركن فمر بهم طائفاً بالبيت فلما أن مر بهم غمزوه ببعض القول قال: وعرفت ذلك في وجهه ثم مضى (ﷺ) فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجهه ثم

مضى (ﷺ) فمر بهم الثالثة غمزوه بمثلها ثم قال : (أستمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده لقد جئتكم بالذبح) قال : فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلا لكأنا على رأسه طائر واقع حتى إن أشدهم فيه وطأة قبل ذلك يتوقاه بأحسن ما يجب من القول حتى إنه ليقول : انصرف يا أبا القاسم انصرف راشدا فوالله ما كنت جهولا، فانصرف رسول الله (ﷺ) حتى إذا كان من الغد اجتمعوا في الحجر و أنا معهم فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه وبيننا هم في ذلك إذ طلع عليهم رسول الله (ﷺ) - فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون له : أنت الذي تقول كذا وكذا لما كان يبلغهم عنه من عيب آلهم ودينهم قال : (نعم أنا الذي أقول ذلك) قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بمجمع رداءه وقال : و قام أبو بكر الصديق رضي الله عنه ودونه يقول وهو يكي : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا بلغت منه قط». (ابن حبان، ١٤٠٨: ١٤ / ٥٢٥).

٥- ضرب النبي: « عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: جَاءَ جَبْرِيلُ (عليه السلام) ذَاتَ يَوْمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)، وَهُوَ جَالِسٌ حَزِينٌ قَدْ خُضِبَ بِالدَّمَاءِ، قَدْ ضَرَبَهُ بَعْضُ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: «فَعَلَ بِي هَؤُلَاءِ، وَفَعَلُوا» (ابن ماجه، ٤٢٨).

٦- تعذيب من يسلم من الضعفة: من جملة الأساليب التي اتخذها كفار قريش لمواذات النبي تعذيبهم من يسلم من ضعفة المسلمين ورلها أُمثلة كثيرة منها: « فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ ، ثُمَّ صَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ حَتَّى بَلَغَ الْجَهْدُ مِنْهُمْ كُلَّ مَبْلَغٍ ، فَأَعْطَوْهُمْ كُلَّ مَا سَأَلُوا ، فَجَاءَ إِلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قَوْمُهُ بِأَنْطَاعِ الْأَدَمِ فِيهَا الْمَاءُ فَأَلْقَوْهُمْ فِيهِ ، ثُمَّ حَمَلُوا بِجَوَانِبِهِ إِلَّا بِلَالًا ، فَجَعَلُوا فِي عُنُقِهِ حَبْلًا ، ثُمَّ أَمَرُوا صَبْيَانَهُمْ يَشْتَدُونَ بِهِ بَيْنَ أَخْشَبِي مَكَّةَ وَجَعَلَ يَقُولُ : أَحَدٌ أَحَدٌ». (ابن أبي شيبه، ١٢: ١٤٩).

هذا التعذيب كله كان يراه نبي الرحمة فيعذب بعذابهم عندما ينظر إليهم بعينه، و ترمقه عيونهم و هم يعذبون فيحترق قلبه لما يري، لأنهم يعذبون بسبب إيمانهم برسالته، و هو لا يستطيع أن يدفع عنهم، فما يكون منه إلا أن يشد علي أيديهم و يربط علي قلوبهم بكلماته الرحيمة الداعية لهم بالصبر و التحمل مبشرهم تارة بما أعد الله لهم من كرامة في

الجنة: «صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة» (ابن هشام، ٢٠٠٥: ٢٨٤)، أو مذكرا لهم بما تحمله أهل الإيمان ممن سبقوهم في سبيل الحق ومبشرا بأن العاقبة الطيبة لا محالة لهم.

كيف تعامل نبي الرحمة مع هذه الحرب الضروس عليه و علي أتباعه:

استقبل نبينا (ﷺ) هذه الحرب الضروس عليه و علي أتباعه بحزن شديد وبخلق سام واستعداد و همة و رجاء لا ينقطع، و حال النبي الكريم (ﷺ) مع تلك المواقف التي وضّحها الكلام لنا في عدة مواقف كما يصف بعضها حال النبي و يرسم بعضها له المنهاج الأمثل في التعاطي معها، ويمكن بيان بعضها في التالي:

١- النبي الرحيم (ﷺ) يتألك لحال الكفار و يتحسر عليهم: قال الله تبارك و تعالي: ﴿فَلَمَّا كَبِخَ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ (كهف: ٦) فنري في هذه الآية المباركة أن النبي يكاد يهلك نفسه من شدة الحزن و الألم علي قومه بسبب إعراضهم عن دين الله عز و جل.

٢- الإعراض و مقابلة السيئة بالحسنة: يقول الله سبحانه و تعالي: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (اعراف: ١٩٩)، و نشاهد مثلها في آية أخرى كما قال الله سبحانه و تعالي: «و لا تستوي الحسنة و لا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم» (فصلت: ٣٤).

٣- الحرص علي هدايتهم بالرغم من عنتهم: و من ذلك أن النبي كان لا يدخر إلا يذكر بالله و الدعوة إليه، من ذلك ما ذكره المغيرة بن شعبة قال: « حَدَّثَنَا الْفَضْلُ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ سَعْدٍ ، عَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ ، قَالَ : قَالَ الْمَغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ : إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) أَنِّي أَمْشِي مَعَ أَبِي جَهْلٍ بِمَكَّةَ ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ) ، فَقَالَ لَهُ : يَا أَبَا الْحَكَمِ ، هَلُمَّ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى كِتَابِهِ أَدْعُوكَ إِلَى اللَّهِ ، فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، مَا أَنْتَ بِمَنْتَه عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا ، هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ ، فَحَنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ ، قَالَ : فَانصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) فَأَقْبَلَ عَلَيَّ ، فَقَالَ : وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ ، أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ وَلَكِنْ بَنِي قُصَيٍّ ، قَالُوا : فِينَا الْحِجَابَةُ ، فَقُلْنَا : نَعَمْ ، ثُمَّ قَالُوا : فِينَا الْقَرَى ، فَقُلْنَا : نَعَمْ ، ثُمَّ قَالُوا فِينَا النَّدْوَةُ ، فَقُلْنَا : نَعَمْ ، ثُمَّ قَالُوا فِينَا السَّقَايَةُ

، فَقُلْنَا نَعَمْ ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ ، قَالُوا : مِثْلُ نَبِيِّ وَاللَّهِ لَا أَفْعَلُ» (ابن أبي شيبه ١٤٠٩: ١٤، ٩١).

فالآثر السابق صريح بأن النبي كان يكرر دعوته لنفس الأشخاص عدة مرات، بل كان يغض الطرف عن إيذائهم ثم يغزوهم في بيوتهم أو طريقهم داعياً الله سبحانه وتعالى، ولم يجد هؤلاء الأشخاص مناصاً من التفلت من النبي إلا بمثل ما قاله أبو جهل، وهو الشهادة أمام الله أنه قد بلغ رسالة ربه، وذلك جرياً على ما يسمعون منه.

أذي اليهود والنصارى :

إن عداوة اليهود للمسلمين ثابتة في الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة ، وحالهم مما لا يخفي وقديماً قال ياسر بن أخطب لأخيه حيي بن أخطب عندما قدم رسول الله إلي المدينة النورة: أهو هو؟ قال: نعم والله!! قال: تعرفه بعينه و صفته؟ فقال: نعم ، والله! قال: فماذا في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت. وصدق الله العظيم القائل: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا. (المائدة: ٨٢).

وقد استخدم اليهود والنصارى شتى الوسائل في عداوة الرسول وهي كما يلي :

- ١-التظاهر بالإسلام: التظاهر بالدخول في الإسلام نفاقاً ، ليعملوا على تخريبه من الداخل ، و ليطلعوا على أسرار المسلمين ، فينقلوها إلي جماعتهم.
- ٢- فتنة المسلمين: محاولة الدخول في الإسلام ثم الخروج منه ، ليفتنوا بعض المسلمين عن دينهم ، فيرتدوا مثلهم.
- ٣-إحراج الرسول بأسئلتهم: إحراج الرسول بسيل من الأسئلة التي يتعتونه فيها ، و التي يلبسون فيها الحق و الباطل ، ولعلهم يوهمون بها العرب أنهم أعلم من الرسول، وأنه غير صادق في رسالته.
- ٤- تعذيب المسلمين : الحرب الدعائية القائمة على الضغط بالتعبير والتنقيص والشتائم لمن شرح الله صدره منهم للإسلام ، فأسلم و قبل هدي الله الذي جاء به النبي عليه الصلاة والسلام.
- ٥- نقضهم للعهد المبرمة بينهم وبين النبي: الغدر و نقض العهود والمواثيق التي يبرمونها بينهم وبين الرسول ، كلما اشتدت الأزمة على المسلمين ، وظن اليهود أن نقضهم عهودهم والغدر بالمسلمين قد يوقع بالرسول وبالمسلمين نكابة بالغة.

٦- الحرب الاقتصادية.

٧- محاولة اغتيال الرسول.

٨- الهزء والسخرية والطعن في الإسلام كلما سنحت لهم الفرصة.

٩- التفريق بين المسلمين ، وتشقيق وحدة جماعتهم. إلي غير ذلك من الايذاء والمكايد عرف بها يهود في تاريخهم. (الميداني، ١٤٣١: ٤٧-٥٠).

أذي المنافقين :

١-السخرية والاحتقار: عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ : كُنْتُ مَعَ عَمِّي فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أَبِي إِبْنِ سَلُولٍ يَقُولُ لَا تُتَّفَقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلَثْنُ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ.

٢-أذي رسول الله في عرضه : يتمثل هذا في حادثة الإفك وقصتها طويلة إن شئت راجع كتب الحديث والسيرة.

قوانين النبي (ﷺ) في الحروب:

البحث الأول: وصايا النبي لأمرء السرايا والجيوش : « عن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال : كان رسول الله (ﷺ) إذا بعث أميراً على جيش أو صاه في خاصة نفسه بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيراً ثم قال اغزوا باسم الله وفي سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال أو خلال فأيتهم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...» (ابن حبان، ١٤٠٨: ١١، ٤٢).

البحث الثاني: ينهى (ﷺ) عن قتل النساء والأطفال: « عَنْ نَافِعٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ امْرَأَةً وَجَدَتْ فِي بَعْضِ مَغَازِي رَسُولِ اللَّهِ - (ﷺ) - مَقْتُولَةً فَأَنكَرَ رَسُولُ اللَّهِ - (ﷺ) - قَتْلَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ ». (سنن أبي داود : ٣، ٦).

البحث الثالث: ينكر علي من خالف ذلك: فقد روي سالم ، عن أبيه ، قال : بعث رسول الله (ﷺ) خالد بن الوليد إلى جذيمة ، فدعاهم إلى الإسلام ، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا ، فجعلوا يقولون صباءنا صباءنا ، وجعل خالد يأخذهم أسرا وقتلا ودفع إلى كل رجل منا أسيراً حتى كان يوماً ، قال خالد : ليقتل كل رجل منكم أسيره ، فقدمنا

على رسول الله (ﷺ) ، فذكر له صنيع خالد ، فرفع النبي (ﷺ) يديه ، وقال : « اللهم اني أبرأ إليك مما صنع خالد » (بخاري، ١٤٢٢: ٤، ١٥٧٧).

وفي رواية ابن إسحاق : عن أبي جعفر محمد بن علي قال ثم دعا رسول الله (ﷺ) علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال يا علي ، أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم وإجعل أمر الجاهلية تحت قدميك . فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله (ﷺ) فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال.

لاتحسبوا أن ما قاله إنما هو كلمات عذبة ، وألفاظ يتجمل بها ، بل ما قاله عن عزيمة ، ولم يظهر للناس إلا ما كان يكن صدره ، ويعمل به مدة حياته فإن الأحاديث الحلوة، والمواعظ الحسنة، والتعاليم العالية ليست قليلة في الدنيا، ولكن الذي يعوز الناس هو العمل بها، وإذا بحثنا عن العاملين بالمواعظ البليغة والحكم الرائعة والأقوال الماثورة والأمثال السائرة؛ كنا كأننا نبحت عن عتقاء مغرب وبيضة الديك . وقد حُقَّ للنبي الأُمِّي العربي أن يؤنب الناس بقول الله - سبحانه - : لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ؟، وهو لم يأمر أحداً بأمر إلا وقد سبقهم إلى العمل به.

مقارنة بين معاملة النبي مع أعدائه ومعاملة غيره من القادة والأمراء في الأمم:

إن حياة مثل حياة محمد ، وقوة كقوة تأمله ، وتفكيره وجهاده ، ووثبته علي خرافات أمته ، وجاهلية شعبه ، وبأسه في ما لقيه من عبدة الأوثان وإيمانه بالظفر وإعلاء كلمته ، ورباطة جأشه لتثبيت أركان العقيدة الإسلامية ، أن كل ذلك أدلة علي إنه لم يكن ليضمّر لأحد أذى ، أو يعيش علي باطل.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿١٥٩﴾ في هذه الآيات اشادة بالقيادة الحكيمة، مع مخالفة بعض الصحابة لأوامر الرسول (ﷺ) فقد وسعهم (ﷺ) بخلقه الكريم وقلبه الرحيم، ونري بأن النبي (ﷺ) لم يخاطبهم بالشدة والغلظة بل خاطبهم باللين والرفق، وهذا دليل علي اجتماعهم ببعثة الرسول الكريم والقائد الحكيم وكذلك في بقية الأحداث الهامة.

فبسبب الرحمة التي أودعها الله تعالي في قلبه الرحيم كان النبي هينا لين الجانب مع أصحابه مع أنهم خالفوا أمره، لو كان جافي الطبع قاسي القلب كانت القضية علي العكس بل عاملوه بالغلظة والجفا و تفرقوا عن حوله.

وهذه أكبر شهادة على رقة قلب الرسول ورأفته ورحمته التي كانت من أجل خصائصه الخليفة هي التي ألقت بين المتنافر، وردت الشارد وهدبت السلوك حتي أضحى العرب منارة للعلم والحضارة بعد ما كانوا كلاب الصحراء وأكلي الجعل.

هذه نظرة مجملة لخلق النبي (ﷺ) ولو استقرينا الفضائل بطريقة تفصيلية لوجدنا الرسول قد نال من كل فضيلة أعلاها حتي أصبح فيها علما يقتدي به، ففي الاعتدال مع مخالفه و الصبر عند آذاهم بلغ منتهاه حيث صبر علي إيذاء قومه و مخالفه، و كان صبره صبر الكرام، و لم تورثه عظمة الإيذاء و شدته الضغينة في قلبه، بل حاز الكمال في العفو و الاعتدال، و نراه يصفح و يعفو بل يكرم من آذاه و يتجنب له، و كان ينسل من قلب عدوه أي عداوة له بكريم صفحه و بعظيم كرمه، و فتح مكة و غزوة حنين أكبر مثال علي ذلك حتي أضحى ألد أعداء الأمس هم أشد أنصار اليوم و أكثرهم حبا للنبي (ﷺ) و لو نظرنا إلي حلم النبي (ﷺ) لوجدناه فاق البشر بذلك، حيث كان يقابل جهل الجاهلين بالحلم، بل لا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما.

و كثيرا ما كان النبي (ﷺ) يقابل السيئة بالحسنة و الجهل بالحلم، بل نشاهد الاعتدال و ابتسامه في مقابلة من تعمد آذاه، عن أنس بن مالك قال: « عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي (ﷺ) وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي (ﷺ) قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبه ثم قال مر لي من مال الله الذي عندك فالتفت إليه فضحك ثم أمر له بعطاء» (بخاري، ١٤٢٢: ٣، ١١٤٨).

و مواقف النبي (ﷺ) الدالة علي اعتداله و عفوه و إحسانه لا يمكن استقصاؤها.

ما شهد به لحمد أقرب الناس إليه وأعرفهم به :

شهادة علي رضي الله عنه:

عليّ صحب النبي منذ صباه إلى أن شبّ؛ فلم يكن أحد من أهل بيته أعلم منه بأخلاقه، وهو يشهد لرسول الله أنه كان طلق الوجه، لين الجانب، خافض الجناح، دمث الأخلاق، رحيماً، ولم يكن فظاً ولا جافياً ولا ينطق بسوء (الندوي: ١٤٣٠، ٢، ١٤٨).

و السيرة كلها هي تفصيل لهذا الخلق العظيم، فما كذب مرة، و ما خان مرة، و ما غدر مرة، عُرِف بالصادق الأمين قبل بعثته، و كان محبوباً من الصغير و الكبير، و عندما جهر بالدعوة لم يعاده إلا أصحاب المصالح و ذوي الأهواء.

و لو جُمعت جميع المكارم و الأخلاق التي عُرِفَت في دنيا الناس، فلا تتجني علي الحقيقة إذا قلنا أنها كلها مجتمعة في هذا النبي الكريم (ﷺ).

كان في الكرم أجود بالخير من الريح المرسلة و لا يرد سائلاً، و لا يقول لا قطف و إنما يعطي ما وجد عنده، و كان رحيماً حتي بالحيوان الأعجمي، و كان صبوراً يتحمل الأذى و لا يشكو و لا يسخط، و إذا وجد فرصة للعفو عمن ظلمه فلا يضيعها أبداً، فكان العفو أحب إليه من العقوبة.

كان حليماً لا يستشير جهل الجاهل و لا حماقة الأحمق، و لم يخير بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً، و كان متواضعاً يأكل علي الأرض كما يأكل العبد، و يكره التكلف في كل شيء، و كان يجلس بين أصحابه كأنه أحدهم حتي إذا جاء الغريب لا يعرفه بينهم، و إنما يسأل: أيكم محمد؟

المطلب الثاني: شهادة هند رضي الله عنه: يشهد هند - ابن خديجة من زوجها الأول، وهو ربيب الرسول في حجره - ليس بالجافي ولا المهين ، ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها. (الندوي: ١٥١، ٢، ١٤٣٠).

كيفية معاملة الأعداء والمخالفين قبل الإسلام وبعده:

معاملة اليهود مع مخالفيهم:

لقد أمرهم أنبياءهم أن يقوموا بالعدل والقسط، وأن لا يتظالموا ولا يظلموا أحداً، وأنزل الله عليهم التوراة فيها هدى ونور، وفصل لهم فيها الحدود والأحكام والقصاص العادل، ولكن أنظر كيف مع ذلك حادوا عن الحق وحرفوا وظلموا وطغوا و استبدوا فكيف بغيرهم من الأمم التي لم تحظ بما حظوا به من توالي الرسالات وكثرة لأنبياء ولذلك نكتفي بالعدل عند أهل الكتاب خشية الإطالة.

وهذه بعض النصوص من التلمود التي تسمح لليهود أن تعتدي على أموال الأميين بل ودمائهم وأعراضهم، نسوق منها أمثلة ليتضح مدى ظلم اليهود وجورهم.

إباحة دماء غير اليهود : يقول التلمود: أقتل الصالح من غير الإسرائيليين ، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من باقي الأمم من هلاك، أو يخرج من حفرة يقع فيها ، لأنه بذلك يكون حفظ حياة أحد الوثنيين. ومن العدل أن يقتل اليهودي بيد كل كافر، لأن من يسفك دم الكافر يقرب قربانا لله ، وكل من ليس يهودي فهو كافر عندهم.

وبهذا يتضح أن اليهود أهل ظلم وجور وفساد يظلمون الناس ويستحلون دماءهم وأعراضهم وأموالهم ويعدون ذلك ديناً، قاتلهم الله أني يؤفكون. (هذا كان حال اليهود! ولكن الإسلام علي وجه آخر يتفاوت عنهم كثيراً).

العدل عند النصارى:

ومن صور جور هذه الأمة وعدم عدلها، أن كل فرقة وطائفة منها إذا تسلطت على الفرق الأخرى أذاقتها ألوانا من الظلم والبطش والاضطهاد، ولم ترقب فيهم إلا ولا ذمة، يقول د. أحمد شلبي: تكرر في تاريخ المسيحية حدث عظيم لم يختلف، وهو التجاء الجانب القوى إلى أعنف وأقسى وسائل الاضطهاد والتعذيب، والتككيل والحرق، والإفناء يسلطها على الجانب الضعيف.. والعجيب أن المسيحيين اضطهدوا من اليهود والرومان، ونزلت بهم الولايات في القرون الثلاثة الأولى، فلما بدأ جانبهم يشتد رأيانهم ينزلون نفس الولايات بمخالفهم من أبناء دينهم، ومن أتباع الأديان الأخرى.

فقد أصبحت معلومة لكل إنسان على وجه المعمورة من اغتصاب وقتل وذبح وتشريد. إن النصارى ما كانوا في عدائهم عدولا، ولا رحماء بمخالفهم، كما هو شأن الإسلام، فقد كانت أعمالهم بخصومهم تفوق كل وصف، وبهذه اتضح ملمح من ملامح الوسطية وكيف مارسته أمة الإسلام مقارنا مع غيرها من أهل الكتابين واتضح لنا أنهم حادوا عن العدل إلى الظلم. وإذا فتحنا ملفات التاريخ وجدنا النصارى قد بلغوا منتهى الظلم والاضطهاد لمن يقع تحت حكمهم وسلطانهم من أهل الأديان الأخرى من قتلهم وترحيلهم واضطهادهم.

العدل عند العرب:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب ، فهم لا يبالون بشن الحروب ، وإزهاق الأرواح ، وكانت بعض القبائل تسطو ، فيقتلون ويأسرون من المغلوبين، ولم تكن في حروبهم شيء باسم المنة والإحسان وقد روي لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في

الجاهلية ، مما يدل علي تمكن الروح الحربية من نفوس العرب؛ فمن تلك الأيام مثلا يوم البسوس ويوم داحس والغبراء.

نبي الرحمة في رحلته إلي الطائف و معاملته مع أهلها:

لما اشتد أذي قريش، و انصرفهم عن الاسلام، و زهدهم فيه، خرج رسول الله (ﷺ) إلي الطائف، يلتمس النصرة من ثقيف، و أن يدخلوا في الإسلام. فلما قدم رسول الله (ﷺ) الطائف، عمد إلي نفر، منهم سادة ثقيف و أشrafهم، فجلس إليهم، و دعاهم إلي الإسلام، فكان ردّهم شرّ ردّ، و استهزأوا به و أغروا به سفهاءهم و عبيدهم، يسبونّه و يصيحون به و رجموه بالحجارة حتي دميت قدماه الشريفتان و استمر السفهاء يلاحقونه حتي ألجأوه إلي بستان لعتبة و شيبية، فغمد النبي (ﷺ) إلي ظل شجرة عنب فجلس تحتها مستظلا بها، و قام فصلي ركعتين و فاض قلبه و لسانه بدعاء شكا فيه إلي الله ضعف قوّته، و قلّة حيلته، و هوانه علي الناس، و ناجي ربّه قائلا: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي و هواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، و أنت ربي إلي من تكلني؟! إلي بعيد يتجهمني أم إلي عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك أو تحل علي سخطك. لك العتبى حتى ترضى لا حول ولا قوة إلا بك». (الندوي، ١٩٧٧: ٥، ٩٦). مناجاة صدرت من الحبيب تحمل من المعاني ما لو ذرفت الدموع و جرت أنهارا لن توفيقها حقها، أعظم مخلوق و خير قدم و طأت المعمورة يتعرض لكل هذا الإيذاء و الإهانات، ثم يناجي الله شاكيا له ضعفه و هوانه علي الناس، و معتذرا بين يدي ربّه و متعوذا من غضبه و سخطه.

و انطلق نبي الرحمة بعد ذلك و هو حزين مهموم لهول الموقف الذي تعرض له في الطائف و لم يستفق نفسه إلا و هو بواد يعرف بقرن الثعالب، فأرسل الله إليه ملك الجبال و لكن شاهد ما كان جوابه علي أعدائه كما جاء في الرواية: « عن ابن شهاب قال حدثني عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي (ﷺ) حدثته : أنها قالت للنبي (ﷺ) هل أتى عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال (لقد لقيت من قومك ما لقيت و كان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجيني إلي ما

أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم فناداني ملك الجبال فسلم علي ثم قال يا محمد فقال ذلك فيما شئت إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ؟ فقال النبي (ﷺ) بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً» (بخاري، ١٤٢٢: ٣، ١١٨٠).

و بهذا الرد النبوي علي ملك الجبال تكشف حقيقة شخصيته و معاملته مع مخالفيه، فالحبيب يقطع المسافات الطوال، و يصل الطائف بغرض دعوتهم لله و هدايتهم، فيقابلونه بإيذاء شديد، و يسلطون سفهائهم عليه فتغضب السماء لما حل برسول الرحمة، و كانت لحظة الإنتقام من كل ثقيف رهن إشارة من نبي الله المهموم الجزين، لكن الحبيب الذي جبل علي الرحمة و الاعتدال و الوسطية لم يشأ في لحظة من لحظات حياته أن يكون سبب تقمة علي أي بشر، علي هذا يطلب من ملك الجبال و جبريل إغذارهم و إمهالهم لعله يخرج من أصلابهم من يوحد الله سبحانه و تعالي، ففكر الرحمة عند رسول الله لم يقتصر علي الأحياء بل تعداه للنطف التي في الأصلاب و التي لم تشق طريق الحياة بعد. فهذا النصوص و الراويات تعكس نفسية النبي و مدي تغلغل فكر الرحمة و الاعتدال في كل جوانب حياته و تصرفاته طوال حياته مع الناس جميعا.

معاملته للكفار و الحرص علي هدايتهم:

أما عن اعتدال النبي (ﷺ) و سماحته فقد ذكرت في ثنايا البحث، منها تجاوزه عن مخالفيه و عفوه عن مبغضيه، و حرصه علي هدايتهم، و منهم أيضا دعاؤه (ﷺ) لمخالفيه و أعدائه من غير المسلمين بالهداية فقد قدم الطفيل بن عمرو الدوسي و أصحابه للنبي (ﷺ) فقالوا: « يا رسول الله إن دوسا عصت وأبت فادع الله عليها فقيل هلكت دوس قال (اللهم اهد دوسا وأت بهم)». (السابق، ٣، ١٠٧٣).

و الموقف نفسه يتكرر مع أبي هريرة حيث يقول: « كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فَدَعَوْتُهَا يَوْمًا فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللَّهِ - (ﷺ) - مَا أَكْرَهُ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - (ﷺ) - وَأَنَا أَبْكِي قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمَّي إِلَى الْإِسْلَامِ فَتَأْبَى عَلَيَّ فَدَعَوْتُهَا الْيَوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ - (ﷺ) - «

اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِرًا بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللَّهِ - (ﷺ) - فَلَمَّا جِئْتُ فَصَرْتُ إِلَى الْبَابِ فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ فَسَمِعْتُ أُمِّي خَشَفَ قَدَمِي فَقَالَتْ مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ. وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ قَالَ - فَاغْتَسَلْتُ وَلَبِسْتُ دَرْعَهَا وَعَجَلْتُ عَنْ خِمَارِهَا فَفَتَحْتُ الْبَابَ ثُمَّ قَالَتْ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - قَالَ - فَرَجَعْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ - (ﷺ) - فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ - قَالَ - قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدْ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَى أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ». (النيسابوري، ١٤٣٢: ٧، ١٢٥).

و من ذلك أن الأنصار اشتكت شكيمة ثقيف و رماحها في الحرب فقالت للرسول (ﷺ): «عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْرَقْنَا نَبَالَ ثَقِيفٍ فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهِمْ. قَالَ: اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقِيفًا.» (الترمذي، ١٩٩٨: ٦، ٢٢٢).

و كان الرسول (ﷺ) حريصا علي هداية الكفار، فكان يتألم أشد الألم إذا رآهم يصدون عن الهدى، و قد رأف الله تعالى به و بين له أن الهداية نعمة من الله تعالى علي عباده، و لا تتحقق إلا لمن كتبها الله له.

و لم يكن النبي (ﷺ) يقاتل الكفار إلا بعد أن تبلغهم دعوة الإسلام فيرفضونها، بذلك عندما أعطي الرؤية لعلي رضي الله عنه في فتح خيبر أوصاه بقوله: «انْفِذْ عَلَى رَسُولِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ.» (النيسابوري، ١٤٣٢: ٧، ٣٠).

و كان رسول الله (ﷺ) يدعوا الله لهداية الكفار حرصا علي إنقاذهم من النار، فيخاطب الكبير و الصغير و الغني و الفقير و الصديق و العدو و العبيد و الأحرار و لكنه كان يولي عناية خاصة لمن يري فيه خصال الزعامات و قوة التأثير في الآخرين و القدرة علي نصرة الدين.

و كان يحسن معاملة الكفار رجاء إسلامهم، فقد أغارت خيل المسلمين علي ديار طيء ففرّ عدي بن حاتم الطائي إلي الروم، و وقعت عمته في الأسر، فسألت الرسول (ﷺ) أن يمن عليها ففعل، ثم سأله أن يمنحها دابة لتركبها ففعل، فمضت إلي عدي بن حاتم فطلبت منه أن يسلم فأسلم.

و من مظاهر اعتداله مع مخالفيه و سماحته أنه كان يقبل هدايا مخالفيه، فقد قبل هدية المقوقس، و هدية المرأة اليهودية التي أهده شاة مسمومة في خير، و كان يغشي مخالفيه في بيوتهم بدعوتهم للإسلام، من ذلك زيارته لكفار قريش في بيوتهم، و منه زيارة النبي (ﷺ) لليهود في منازلهم و دعوتهم لله، بل كان يزور مرضاهم من ذلك «عن أنس رضي الله عنه: أن غلاما يهود كان يخدم النبي (ﷺ) فمرض فأثاه النبي (ﷺ) يعودوه فقال (أسلم) . فأسلم. (بخاري، ١٤٢٢: ٥، ٢١٤٢).

هذه السماحة التي تميز بها نبينا و التي وسعت الناس كلهم بغض النظر عن دينهمو غمرتهم بالرحمة و الاعتدال و الإحسان كانت سببا مفصليا في انتشار الإسلام بسرعة أدهشت العالم القديم.

أعرابي يريد قتله و النبي يعفو عنه:

حلمه وعفوه (ﷺ) بلغ النبي (ﷺ) في حلمه، وعفوه في دعوته إلى الله - تعالى - الغاية المثالية، والدلائل على ذلك كثيرة جداً، منها على سبيل المثال: «عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: «غزونا مع رسول الله (ﷺ) غزوة قبل نجد فأدركنا رسول الله (ﷺ) في وادٍ كثير العضاء، فنزل رسول الله (ﷺ) تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله (ﷺ): "إن رجلاً أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتاً في يده، فقال لي، من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله، قال: فشام السيف، فها هو ذا جالس"، ثم لم يعرض له رسول الله (ﷺ)». (أبو عبد الرحمن، ١٤٢٧: ٧٤) الله أكبر! ما أعظم هذا الخلق! وما أكبر أثره في النفس! أعرابي يريد قتل النبي (ﷺ) ثم يعصمه الله منه، ويمكّنه من القدرة على قتله، ثم يعفو عنه! إن هذا خلق عظيم وصدق الله العظيم إذ يقول للنبي (ﷺ): {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤)، وهذا الخلق الحكيم قد أثر في حياة الرجل، وأسلم بعد ذلك، فاهتدى به خلق كثير.

و كذلك نشاهد في سيرته (ﷺ) معاملته مع من قال كُنا أحق بهذا

عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: «بعث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - إلى رسول الله من اليمن بذهبية في أديم مقروظ لم تحصل من ترابها، قال:

فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر وأقرع بن حابس، وزيد الخيل والرابع إما علقمة وإما عامر بن الطفيل، فقال رجل من أصحابه: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَلْيُغْ ذَلِكَ النَّبِيُّ (ﷺ) فقال: "أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً؟" قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُ اللَّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: "وَيْلَكَ، أَوْلَسْتُ أَحَقُّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟" قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: "لَا، لَعَلَّه أَنْ يَكُونَ يَصْلِي" فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): "إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَتَقَبَّ قُلُوبَ النَّاسِ وَلَا أَشَقَّ بَطُونَهُمْ". قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٌّ فَقَالَ: "إِنَّهُ يُخْرِجُ مِنْ ضَنْضِيءٍ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا لَا يَجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمْيَةِ، لَئِنْ أَدْرَكْتَهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ".

وهذا من مظاهر حلم النبي (ﷺ)، فقد أخذ بالظاهر ولم يؤمر أن ينقب قلوب الناس، ولا أن يشق بطونهم، والرجل قد استحق القتل واستوجب؛ ولكن النبي (ﷺ) لم يقتله؛ لئلا يتحدث الناس أنه يقتل أصحابه ولا سيما من صلى.

عدالة النبي مع المشركين والكفار:

إن أم المؤمنين عائشة - التي صحبت الرسول تسع سنوات، وكانت أحب أزواجه إليه بعد خديجة - تقول في وصفه: لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخاباً في الأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح. ما ضرب بيده شيئاً قط إلا أن يجاهد في سبيل الله ولا ضرب خادماً ولا امرأة. (الندوي، ١٣٨٦: ٢، ١٤).

وإخالكم سمعتم بواعظ يعظ الناس بأن يحبوا أعداءهم، ويحتمهم على مودة مبغضينهم؛ لكنني لا أحسبكم رأيتم مثلاً عملياً لاتعاط الناس بهذه المبادئ؛ فتعالوا معي إلى مدينة الرسول؛ لنرى أمثلة رائعة للعمل بالمبادئ لا أظنكم ترون مثلها في أمكنة أخرى. وأتركوا ما جرى في مكة؛ فإن النبي لم تكن له فيها قوة؛ فلا تضرب المثل منها للحلم والعفو عن مقدرة. لكنه لما خرج من مكة ومعه صاحبه أبو بكر؛ تعقبهما سراقة وهما في طريقهما إلى المدينة، وكان يطمع بجائزة قریش، بعد أن ساخت قائمتا فرسه سراقة في الأرض، نادهما بالأمان فوقف عليه الصلاة والسلام ومن معه حتي وصل إليهم،

فاعتذر إليه وسأله أن يستغفر له.... ، ثم عاد سراقة أدراجه إلي مكة ولم يؤاخذه الرسول بما كان يريد من قتله؛ بل لم يسأله عن ذلك البتة.

أبوسفيان وزوجه هند بين يدي الرسول:

قد علمتم أبا سفيان ومكانته من مُشركي قريش، ونشاطه في مقاومة الإسلام؛ حتى لم يدع النبي يقر قراره ويطمئن باله في المدينة، وهو الذي زحف بالجيوش، وعباً المشركين في بدر وأحد والخندق، وكان قائدهم في معظم الحروب التي قامت بين المسلمين ومُشركي العرب، وكم من مسلم قُتل، وجريح جرح في تلك المعارك، لكن أبا سفيان هذا - مع كل ما تقدم منه - جاء إلى النبي مع عمه العباس قبل فتح مكة، ولو أنه قتله لكان بذلك معذوراً، لكنه - وهو الذي بُعث رحمةً العالمين - وقد وسّعت رحمته أبا سفيان؛ فشمله بعفوه، ولم يكتفِ بالعفو؛ حتى أكرمه وأعزه ونادى في الناس يوم فتح مكة: «مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن». (الصَلَّابِي، ١٤٣٠: ٢، ٤٠٤) وعرفتم هند - زوج أبي سفيان - في الحروب؛ وهي التي كانت مع لداتها من نساء المشركين ترجز وتحرض على القتال، وتخطب في غزوة أحد، وهي التي مثلت بعم النبي حمزة؛ فقد أته هند يوم الفتح متتقبة؛ فلم يتعرض لها، ولم يسألها عما فعلت؛ بل عفا عنها وصفح؛ فلما رأت هذا العفو النبيل؛ أكبرته، ولم تتمالك أن صاحت قائلة: «يا رسول الله والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خباذك ثم ما أصبح اليوم على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يعزوا من أهل خباذك». (البيهقي، ١٩٩٤: ٧، ٦٦).

وحشي قاتل عم النبي :

بعد فتح الطائف؛ خرج وحشي قاتل حمزة - رضي الله عنه - هارباً يلتمس مكاناً آخر؛ فاختبأ به، فلما أظلم سلطان الإسلام هذا المخبأ الذي لجأ إليه وحشي؛ قال له القائل: إنك لا تعلم ما نعلم من أمر محمد؛ إنك لن تجد لنفسك مأمنًا إلّا عنده؛ فحضره خائفاً؛ فلما وقع عليه نظر النبي، وغض عنه بصره؛ وتذكر في تلك اللحظة عمه حمزة وقتله بيد هذا الرجل؛ فذرفت الدموع من عينيه الشريقتين، وها هو القاتل أمامه، ولو أراد أن يقتص منه

لكان ذلك حقاً وعدلاً؛ لكنه عفاً عنه، واكتفي بأن صرّفه قائلاً: «إليك عني؛ فإني إذا رأيتك تذكرتُ عمي حمزة وشهادته».

فلم يكن عنده حب التتقام ولا الانتصار للنفس، لأنه داع صاحب منهج فالغضب كان لله لا للنفس، وحينما جاء ألد أعدائه مسلمين مقبلين علي الله نسي إساءتهم له طول سنين عديدة، رغم أنهم قتلوا أحب أصحابه إليه وأخرجوه من بلده، و ساموا أصحابه سوء العذاب، فعفا عنهم و صفح عما كان منهم، وهذا عكرمة بن أبي جهل حينما جاء يريد الإسلام أمر النبي (ﷺ) أصحابه ألا يسبوا أباه، فإن سب الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت، إلي هذا الحد كان حريصاً علي مشاعر من كان عدوا له، و حينما أقبل قام إليه حتي سقط منه رداؤه فرحاً بقدومه مسلماً.

أي صدر كان أوسع من هذا الصدر الواسع كالفضاء، والذي لا يعكره شيء، وهذا ما جعل أعدائه لا يياسون من رحمته وعدله و كرمه و جوده، فكانت أخلاقه مفضية إلي هداية الناس، فاتحة لهم أبواب التوبة والإنبابة وهكذا يجب أن يكون الدعاة.

عكرمة (أعدى عدو للإسلام والمسلمين ورسول الله):

أبو جهل آذى النبي الكريم أذى لم يؤذه أحد مثله، وابنه عكرمة قاتل المسلمين؛ فلما فتح الله مكة لرسوله؛ قدم على النبي (ﷺ) فلما رآه النبي (ﷺ) وثب إليه فرحاً وما عليه رداؤه حتى بايعه ٢٧ وهل تعلمون بمن يرحب رسول الله ، ومن هو هذا القادم الذي فرح بقدومه حتى سقط عن منكبه رداؤه، وشمله بعفوه و صفحه إن هذا كله لرجل سبق منه قبل إسلامه أن قاتل المسلمين وأذاهم. فلما قدم على النبي وهو في أوج قوته؛ هش له وبش، ورحب به واستقبله بوجه طلق وصدر رحب.

هبار بن الأسود (قاتل زينب بنت الرسول):

له فعلات أخرى وجرائم شتى، وقد خالف المسلمين أشد الخلاف؛ فلما فتح الله مكة لنييه؛ جاءه يقول : يا رسول الله؛ كنتُ هممتُ أن أفرّ إلى بلاد الفرس؛ لكنني تذكرتُ عفوك العام، و صفحك الشامل؛ فجتئتُ معترفاً بجميع ما بلغك من ذنوبي. فلما سمع النبي اعترافه؛ شمله بعفوه الذي وسع أعدائه جميعاً، وفتح له باب رحمته - الذي ما زال مفتوحاً للجميع .

عمير بن وهب المأمر على قتل النبي :

تأمر على قتل النبي مع صفوان بن أمية، بعد وقعة بدر؛ فخرج إلى المدينة يترصد النبي، ومعه سيف مسموم؛ فوقع أسيراً بأيدي المسلمين، وثبتت عليه جرائمه؛ فخلّى النبي سبيله، ولم يمسه بسوء.

وكذلك وقع في أسر المسلمين أعرابي كان راصداً لقتل الرسول؛ فلما أحضر إليه؛ ذعر الأسير؛ فسكن الرسول روعه، وخفف عنه؛ وقال له: لو أردت قتلي ما قدرت عليه. وقبض المسلمون على ثمانين من المشركين يوم فتح مكة، وكانوا ممن يحرصون على قتل الرسول؛ فلما بلغه أمرهم؛ أمر بتخليّة سبيلهم، ولم يمسه بسوء!

إنكم تعلمون الطائف وأهلها، وكيف قابلوا الرسول بالشر والأذى، وبعد أن زحف المسلمون على الطائف في السنة الثامنة للهجرة، وحاصروها فأطالوا حصارها؛ واستعصى عليهم حصنها الحصين الذي قتل فيه كثيرون منهم؛ فهم الرسول أن يرجع عنهم، لكن أصحابه أبوا إلا الفتح، وسألوا النبي أن يدعو على أهل الثقيف؛ فرفع يديه إلى السماء يدعو فقال: «اللهم اهد ثقيفا».

هذه هي رحمة الرسول، وسعة صدره، وسجاجة خلقه، وكرم نفسه؛ يدعو بالخير للذين آذوه بالشر أشد الأذى، وأبوا أن يميروه حين استجار بهم، ثم قاتلوه أشد القتال، ومع كل هذا؛ لم يسأل الله لهم إلا أعظم ما يعلمه من الخير - وهو الهدى - ! رأيت رجلاً آخر في الدنيا بلغت العدل والرحمة هذا المبلغ؟ كلا! وحاشا!

لما انكسرت ثنيته، وشج رأسه، ودخل فيه ثلاث حلقات من البيضة، وتضرّج بالدم يوم أحد؛ لم يزد في ذلك الموقف الرهيب على أن قال: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»!

اليوم يوم الرحمة

خرج الرسول (ﷺ) من مكة طريدا متخفيا، ودخلها بعد عشر سنوات عزيزا فاتحا حوله جيش لم تعهد العرب مثل تنظيمه وعدته، مع هذا الجيش الكبير دخلها متواضعا خفيض الرأس من شدة التخضع لله، وعندما بلغته مقولة سعد بن عباد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الكعبة، قال الحبيب: اليوم يوم الرحمة.

من المعلوم أن طبيعة البشر أنهم لا يستطيعون تناسي الآلام والجراح، خاصة إذا كان مبعثها الظلم والمكر، وقد يدفن الإنسان جراحه ومآسيه ومظالم الآخرين لحظة لحظة الضعف وعدم القدرة علي إشفاء غيظة، لكن لحظة القدرة علي ذلك تنفجر تلك الآلام والمآسي.

و ليس من السهل لحظة الانتصار والتمكن من العدو أن يتناسي ما اجتريه في حقه، وهذه طبيعة البشر مهما أوتوا من حلم ورزقوا من خلق ويريد البشر أن يطفئ النار التي اشتعلت في داخله فجأة، ولكن البشر هم بشر، والرسول إن كان في أصل خلقته بشر أما فاق البشر جميعا بخطاله ووسطيته وعفوه حتي وزنته الملائكة بالبشرية كلها ففاقها.

يجمع النبي محمد (ﷺ) أهل مكة، يجمع من عذبه و شتمه و آذاه ليقول لهم في موقف مهيب: يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم وابن أخ كريم، قال الحبيب: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء» (الصّلاحي، ١٤٣٠: ٢، ٤٠٨).

بهذه الكلمات القليلة طوي النبي كل صفحات الماضي ومآسيها، ودون تعنيف أو توبيخ أو معاتبة، بل بأسلوب لطيف كريم حيث اعتبرهم إخوة له أساءوا له فحلم عليهم كما حلم يوسف علي إخوته وعفا عنهم، يقول لورد هدلي في رسالة كتبها بمناسبة ميلاد النبي و ذلك خلال مكثه في العراق: «هذا كله دليل علي أن محمدا (ﷺ) لم يكن متصفا بالقسوة ولا متعطشا للدماء كما يقول خصومه، بل كان دائما يعمل علي حقن الدماء جهد المستطاع وقد نال محمد نبي الإسلام حبّ العالم وحبّ أعدائه بوجه خاص، وذلك عندما ضرب مثلا في مكارم الأخلاق بإطلاق سراح عشرة آلاف أسير كانوا في يوم من الأيام يعملون علي قتله و الفتك به و إيراده و أصحابه موارد الهلاك». (المبيض، ٢٠٠٨: ٢١١).

أي بشر هذا محمد (ﷺ)؟ حتي في عفو أعدائه كان في غاية الأدب، بل خلال بقاءه في مكة كان آية في الرحمة والوسطية، وأي بشر كمحمد (ﷺ) ينخذ الخلق العظيم سجية له تنعكس علي كل تصرفاته، فهو الحليم الذي يستقبل سفاهات الغير و جهلهم بمتنهي البساطة، و يقابلها بفكر الرحمة، و لم يكن سريع الغضب عصبي الطبع و المزاج، بل

كان هادئاً حليماً كريماً، نعم إنها أخلاق النبوة التي لا مجال للغدر و المكر فيها، إنها تربية أخرجت للعالم كله أمة غاية في السماحة و الرحمة، أمة دثارها محاسن الأخلاق، أسمى فكرها هداية البشر، و غاية جهدها بث تعاليم السماوي في البشر، أمة تربت علي يد سيد الكونين و صاحب الرحمة العالمية.

معاملة النبي مع اليهود:

١ - لما فتح رسول الله خير - معقل اليهود العظيم وحصنهم المنيع -؛ صنعَت يهودية طعماً ودعت إليه النبي؛ فأجاب دعوتها؛ فقدمت له لحماً مسموماً؛ فلما تناول منه؛ أعلمه الله بذلك؛ فأمسك يده عنه، ودعا باليهودية فسألها عن الشاة المسمومة؛ فاعترفت بجريمتها، وقد بلغ من حلم رسول الله أن تجاوز عنها، ولم يؤاخذها على ذلك بسوء! وبقي مدة حياته يشعر بأثر ذلك السم.

٢ - عن عائشة رضي الله عنها، قالت: كَانَ الْيَهُودُ يُسَلِّمُونَ عَلَى النَّبِيِّ (ﷺ) يَقُولُونَ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقَطَنَتْ عَائِشَةُ إِلَى قَوْلِهِمْ، فَقَالَتْ: عَلَيْكُمُ السَّامُ وَاللَّعْنَةُ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): «مَهْلًا يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ» فَقَالَتْ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوَلَمْ تَسْمَعْ مَا يَقُولُونَ؟ قَالَ: "أَوَلَمْ تَسْمَعِي أَنِّي أَرَدْتُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ، فَأَقُولُ: وَعَلَيْكُمْ" (بخاري، ١٤٢٢: ٨، ٨٤).

هذا هو الرسول القائد وزعيم المدينة المنورة يأتيه رهط من اليهود ويدعون عليه أمامه بالموت ولكنه لم يعاقبهم ولم يجازيهم وزد علي ذلك طلبه من عائشة أن ترفق بمن همزه ولعنه ويمنع عائشة -رضي الله عنها- من الغلظة .

و كان النبي (ﷺ) يعفو عند القدرة، ويحلم عند الغضب، ويحسن إلى المسيء، وقد كانت هذه الأخلاق العالية من أعظم الأسباب في إجابة دعوته والإيمان به، واجتماع القلوب عليه، و من أعجب من هذه القصة حكاية زيد بن سعة الذي كان من أحد أحبار اليهود وعلمائهم الكبار .

«جاء زيد بن سعة إلى رسول الله (ﷺ) يطلبه ديناً عليه، فأخذ بمجامع قميصه وردائه وجذبه، وأغلظ له القول، ونظر إلى النبي (ﷺ) بوجه غليظ وقال: يا محمد، ألا تقضييني حقي، إنكم يا بني عبد المطلب قوم مُطَلٌّ، وشدد له في القول، فنظر إليه عمر وعيناها تدوران في رأسه كالفلك المستدير، ثم قال: يا عدو الله، أتقول لرسول الله (ﷺ) ما

أسمع، وتفعل ما أرى، فوالذي بعثه بالحق لولا ما أحاذر لومه لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله (ﷺ) ينظر إلى عمر في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: "أنا وهو يا عمر كنا أحوج إلى غيره هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التقاضي، اذهب به يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر". (القحطاني: ٧٥) فكان هذا سبباً لإسلامه، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

وكان زيد قبل هذه القصة يقول: (لم يبق شيء من علامات النبوة إلا وقد عرفتها في وجه محمد (ﷺ) إلا اثنتين لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً) .

فاختبره بهذه الحادثة فوجده كما وُصف، فأسلم وآمن وصدق، وشهد مع النبي (ﷺ) مشاهده، واستشهد في غزوة تبوك مقبلاً غير مدبر، فقد أقام محمد (ﷺ) براهين عديدة من أخلاقه على صدقه، وأن ما يدعو إليه حق.

معاملة النبي مع المنافقين:

وأما سيرته في المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم و وكل سرائرهم إلى الله وأن يجاهدكم بالعلم والحجة فهذه سيرته في أعدائه من الكفار والمنافقين . ٢- تأمر عليه المنافقون - وهو في طريق عودته من التبوك إلي المدينة- تأمروا عليه ليقتلوه ، وعلم بهم، وقيل له فيهم ، فعفا عنهم وقال: «لا يتحدث أن محمداً يقتل أصحابه».

٢- حينما مات عبدالله بن أبي كبير المنافقين والذي جرح رسول الله (ﷺ) والذي كان يعمل على تحزيب الأحزاب والذي والذي ، حينما مات وتقدم النبي عليه الصلاة والسلام فصلى عليه.

فلما قدم النبي (ﷺ) المدينة، وقد أجمع الأوس والخزرج على تملك عبد الله بن أبي، ولم يختلف عليه في شرفه اثنان، ولم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين، وكانوا قد نظموا له الخرز، ليتوجوه ثم يملكوه عليهم، فجاءهم الله - تعالى - برسول الله (ﷺ) وهم على ذلك، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام امتلأ قلبه حقداً وعداوةً وبغضاً، ورأى أن رسول الله (ﷺ) قد استلبه ملكه، فلما رأى قومه أبوا إلا الإسلام، دخل فيه كارهاً مصراً على النفاق والحقد والعداوة ولم يأل جهداً في الصد عن الإسلام، وتفريق جماعة المسلمين، والذب عن اليهود ومساعدتهم.

وقد ظهرت مواقفه الحبيثة في معاداته لدعوة الإسلام، ولكن عن طريق التستر والنفاق، وقد كان النبي (ﷺ) يقابل عداوته بالعفو والصفح والحلم؛ لأنه يظهر الإسلام؛ ولأن له أعواناً من المنافقين، هو رئيسهم وهم تبع له، فكان (ﷺ) يحسن إليه بالمقال والفعل، ويقابل إساءته بالعفو والإحسان في عدة مواقف، منها على سبيل المثال ما يأتي:

شفاعته لليهود - بنو قينقاع - عندما نقضوا العهد: نقض بنو قينقاع العهد بعد بدر بكشف عورة امرأة من المسلمين في السوق، وبقتل رجل نصرها من المسلمين فسار إليهم رسول الله (ﷺ) يوم السبت للنصف من شوال، على رأس عشرين شهراً من الهجرة، وحاصروهم خمسة عشر يوماً، وتحصنوا في حصونهم، فحاصروهم أشد الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب، فنزلوا على حكم رسول الله (ﷺ) فأمر بهم فكففوا، وكانوا سبعمئة مقاتل، فقام إلى النبي (ﷺ) عبد الله بن أبي حنيفة أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، فأبطأ عليه رسول الله (ﷺ)، فقال: يا محمد، أحسن في موالي، فأعرض عنه، فأدخل يديه في جيب درع النبي (ﷺ)، وقال: والله لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربع مائة حاسر، وثلاث مائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدكم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فوهبهم النبي (ﷺ) له وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولا يجاوروه بها، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام، وقبض منهم أموالهم، وخمس غنائمهم صلوات الله وسلامه عليه .

فلم يعاقبه رسول الله (ﷺ)، على هذه الشفاعة وعلى شدته القبيحة، بل عفى عنه (ﷺ).

٢ - ما فعله مع النبي (ﷺ) يوم أحد: خرج النبي (ﷺ) إلى معركة أحد، فلما صار بين أحد والمدينة انخزل عبد الله بن أبي بنحو ثلث العسكر، ورجع بهم إلى المدينة فتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام، والد جابر - رضي الله عنهما - فوبخهم، وحضهم على الرجوع، وقال: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، قالوا: لو نعلم أنكم تقتاتلون لم نرجع، فرجع عنهم وسبهم .

فلم يعاقبه رسول الله (ﷺ) على هذا الجرم العظيم، وتحذيل المسلمين.

٣ - صدّه الرسول (ﷺ) عن الدعوة إلى الله تعالى: ركب النبي (ﷺ) إلى سعد بن عباد، فمر بعدو الله عبد الله بن أبي وحوله رجال من قومه، فنزل (ﷺ) فسلم ثم جلس

قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله - عز وجل -، وذكر بالله، وحذر وبشر وأنذر، وعندما فرغ النبي (ﷺ) من مقالته، قال له عبد الله بن أبي: يا هذا، إنه لا أحسن من حديثك هذا، إن كان حقاً فاجلس في بيتك فمن جاءك فحدثه إياه، ومن لم يأتك فلا تغته ولا تأته في مجلسه بما يكره منه فلم يؤاخذه النبي (ﷺ)، وعفا عنه وصفح.

٤ - تتيته بني النضير: عندما نقض يهود بني النضير العهد بهمهم بقتل النبي (ﷺ)، بعث إليهم محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده، فبعث إليهم أهل النفاق - وعلى رأسهم عبد الله بن أبي - أن اثبتوا وتمنعوا فإننا لن نسلمكم، إن قُوتلتم قاتلنا معكم، وإن أخرجتم خرجنا معكم، ففويت عزيمة اليهود، وناذروا رسول الله (ﷺ) بنقض العهد، فخرج إليهم حتى نزل بهم وحاصرهم، فكدف الله في قلوبهم الرعب، وأجلاهم النبي (ﷺ) وخرجوا إلى خير، ومنهم من سار إلى الشام.

وترك النبي (ﷺ) عبد الله بن أبي فلم يعاقبه على ذلك الفعل القبيح!

٥ - كيد غدره للنبي (ﷺ) ومن معه من المسلمين في غزوة المريسيع: في هذه الغزوة قام عبد الله بن أبي بعدة مواقف مخزية توجب قتله وعقابه، ومنها:

وفي هذه الغزوة قال عبد الله بن أبي: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنَّا الْأَذَلَّ﴾ (المنافقون: ٨).

وفي هذه الغزوة قال عدو الله: ﴿لَا تُتَفَقَّهُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْقُضُوا﴾ (المنافقون: ٧).

وقد ظهرت الحكمة المحمدية، وتجلت السياسة الرشيدة في إخماد النبي (ﷺ) نار الفتنة، وقطع دابر الشر - بفضل الله ثم بصبره - على عبد الله بن أبي، وتحمله له، والإحسان إليه، ومقابلة هذه المواقف المخزية من هذا الزعيم المنافق بالعفو؛ لأنه هذا الرجل له أعوان، ويخشى من شرهم على الدعوة الإسلامية؛ ولأنه يظهر إسلامه، ولهذا «قال النبي (ﷺ) لعمر بن الخطاب - حينما قال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق -: دعه حتى لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» (القحطاني: ٧٦).

فلو قتله رسول الله (ﷺ) لكان ذلك منفراً للناس عن الدخول في الإسلام؛ لأنهم يرون أن عبد الله بن أبي مسلم، ومن ثم سيقول الناس: إن محمداً يقتل المسلمين، فعند ذلك تظهر المفاصد، وتتعطل المصالح.

فظهرت حكمة النبي (ﷺ) وصبره على بعض المفاصد خوفاً من أن تترتب على ذلك مفسدة أعظم؛ ولتقوى شوكة الإسلام، وقد أمر بالحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر. وقد ظهرت الحكمة لعمر بعد ذلك في عدم قتل عبد الله بن أبي فقال: (قد والله علمت، لأمر رسول الله (ﷺ) أعظم بركة من أمري).

وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله أن يسلكوا طريق الحكمة في دعوتهم اقتداءً بنبيهم (ﷺ).

خلاصة القول:

إن دُعاة الديانات الأخرى يُسمعون الناس مواظب حُلوة من أقوال أنبيائهم ومُصلحيهم، أما دُعاة الإسلام؛ فيقدمون للإنسانية أمثلة عملية من سُنّة نبيهم وهدية. هذه هي محبة الأعداء والعفو عنهم، وهذا ما حققه محمد رسول الله، وضرب به المثل للسماحة التي لا عهد للدنيا بمثلها؛ فذلك هو العفو والصفح والعدل، وتلك هي دماثة الخلق، وسعة الصدر، وكرم المعدن. إنه لم يدعُ الناس إلى فضيلة إلّا بدأ بها بنفسه. لم تكن دعوته كلمات عذبة يرسلها على الناس؛ ولكنها كانت عملاً يتقدم به إلى الإنسانية ليكون لها منه أسوة وقدوة.

لقد أدى النبي (ﷺ) رسالته فقد أحسن تربيتنا وعلمنا العلم الفاضل فنحن كمسلمون يجب علينا أن ننظر إلى هديه وأن نأخذ عنه أسلوب التعامل فلم يكن الرسول صلوات الله عليه يرد على الإساءة بالإساءة بل كان لطيف التعامل حسن الخلق.

النبي الرحيم يصطنع أمة معتدلة:

كان من أهم أولويات النبي (ﷺ) هو تخريج أمة تحمل فكر الرحمة والاعتدال منهاجاً وسلوكاً، وتحمل هم الهداية للبشرية، وكان هديه بعد بيان سعة رحمة الله إخبار أمتة أن تلك الرحمة لا ينالها إلا الرحماء، يقول النبي (ﷺ): «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُم مِّنْ فِي السَّمَاءِ، الرَّحِمُ شَجَّةٌ مِنَ الرَّحْمَنِ، فَمَنْ وَصَلَهَا وَصَلَهُ اللَّهُ وَمَنْ قَطَعَهَا قَطَعَهُ اللَّهُ» (الترمذي، ١٩٩٨: ٣، ٣٨٨).

بل نراه يستهجن كل موقف يدل علي القسوة أو ينزع نحو خصوصية الفكر لا عموميته، و يؤدب النبي (ﷺ) أمته علي اغتنام كل فرصة من شأنها إسباغ الرحمة علي أي فرد من أمته مهما كانت مآنته و موقفه.

و للتأكيد علي بقاء الرحمة حاضرا في قلوب الصحابة في جميع الأحوال كان النبي (ﷺ) حريصا علي عدم تغلغل نوازع اللعن و الانتقام و القسوة و الظلم علي مخالفينهم، خاصة في المعارك التي تطيش فيها العقول، و تقسو مع رؤية الدماء القلوب و كان دائما يصحح المسار لديهم ليضمن هيمنة فكر الرحمة علي وجدانهم، و هذا الأمر لمسناه جليا خلال غزوات النبي (ﷺ) خاصة غزوة أحد و فتح مكة.

و في المواقف العديدة ربّي أصحابه فكر الاعتدال و الشفقة و الحنو علي العباد خاصة أنهم يدركون أن رحمة الله لا ينالها إلا الرّحماء، و كأن النبي (ﷺ) يقول لهم: كونوا رحماء بالبشرية مشفقين عليها شفقة الأم علي ولدها.

و هذه التربية أخرجت زرعها و أثمرت للبشرية أمة وسطا هي خير أمة أخرجت للناس، أمة رحيمة متسامحة مشفقة علي البشرية حريصة علي هدايتها علي خلاف الأمم و الملوك، أنهم حريصة علي الملك و المقام و القتل، فهذه أمة شهد لها التاريخ و رموزه ذكر القس ميثون في كتابه (سياحة دينية في الشرق: « إنه من الحزن أن يتلقي المسيحيون عن المسلمين روح التسامح و حسن المعاملة، و هما أقدس قواعد الرحمة و الإنسانية عند الشعوب و الأمم» (المبيض، ٢٠٠٨: ٢٤٩).

و تقول المستشرقة الألمانية زيغريد هونكة: « إن الحكام المسلمين لم يزجوا بأنفسهم في شئون تلك الشعوب الداخلية، فبطريك بيت المقدس يكتب في القرن التاسع لأخيه بطريك القسطنطينية عن العرب أنهم يمتازون بالعدل و لا يظلموننا ألبتة، و هم لا يستخدمون معنا أي عنف.. لقد أعطي العرب لمن يعتنقوا الإسلام من شعوب البلدان التي فتحوها حرية الديانة و حريتهم كمواطنين» (السابق: ٢٤٩).

و يقول الكونت هنري دي كاسترو: « إن المسلمين امتازوا بالمسالة و حرية الأفكار في المعاملات و محاسبة المخالفين، و هذا يحملنا علي تصديق ما قاله (روبسون): إن أنصار محمد هم وحدهم الذين جمعوا المحاسنة و محبة انتشار دينهم، و هذه المحبة هي التي دفعت العرب في طريق الفتح، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة، و لم يتركوا أثرا

للعسف في طريقهم إلا ما كان لا بد منه في كل حرب و قتال، و لم يقتلوا أمة أبت الإسلام» (السابق: ٢٤٩).

النتيجة

بعد هذه الرحلة المباركة عبر شدا الحبيب محمد (ﷺ) وبستانه النضير اليانع، وزهراته المفتحة مدي الدهر يعلم هو الرحمة العالمية، و أسمى مظهر من مظاهر الرحمة الربانية التي عرفتها البشرية، صحيح أن محمدا (ﷺ) بشر لكنه ليس كالبشر، فالنبي محمد (ﷺ) فاق البشرية جميعا بأخلاقه و اعتداله و صفاته البارزة، في رحمته و سماحته، في عطائه و جوده، في زهده و حكمته و عبقريته.

و لاتفلح أمة مهما أوتيت من الحول والطول والذكاء والوسائل ، إلا باتباع هذا النبي والحب له و الإنتصار لدعوته ، رضيت بذلك أم أبت ، وكل أمة تحاول أن تنال العزة والسؤدد عن غير هذا الطريق ، معتمدة علي سياستها الحكيمة ، أو الانضمام إلي معسكر من المعسكرات القوية ، وليس عاقبتها إلا الذل والهوان والإخفاق الذريع والانشقاق الداخلي والخيبة عاجلا وأجلا ؛ فحري بنا أيها المسلمون أن نصديق في تعاملنا وأن نتأدب بأداب الاسلام فو الله وإن تتبع كتاب الله وسنة رسوله فهذه كفيلة برفع راية الاسلام والمسلمين، فالإسلام دين عمل وليسى دين ردود أفعال ، فو الله يجب علينا أن نخجل أولا مما نعمل ونشاهد ولو أصلحنا مما بنا لكنا امة مسلمة حقة. نسأل الله لنا وللجميع حسن العمل والتقوى وان يرد كيد الكائدين في نحورهم - إن شاء الله-.

قائمة المصادر والمراجع

إن خير ما نبتدىء به القرآن الكريم.

١. أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السّجستاني (المتوفى: ٢٧٥هـ)، سنن أبي داود، المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
٢. أبو الحسن علي الحسيني الندوي، قصص النبيين سيرة خاتم النبيين، مجلس نشرات اسلام، ١٩٧٧م.
٣. أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العباسي الكوفي، مصنف ابن أبي شيبة، ١٥٩- ٢٣٥ هـ.

٤. أبي عبدالله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه الربعي، سنن ابن ماجه، مكتبه رحمانيه، طبع في باكستان، رقم الحديث: ٤٠٢٨.
٥. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، الصحيح لمسلم، مكتبة البشري: كراتشي-باكستان، الطبعة الجديدة ١٤٣٢هـ-٢٠١١م.
٦. الإمام أبي محمد عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، حققها و ضبطها: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شبلي، دار ابن كثير: دمشق- بيروت، الطبعة الثانية ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.
٧. أحمد بن حسين بن علي أبوبكر البهقي، سنن البهقي الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطاء، مكتبة دار الباز- مكة المكرمة ١٩٩٤م.
٨. الدكتور أكرم ضياء العمري، فقه السيرة النبوية، توزيع: دار ابن حزم: بيروت- لبنان، الطبعة الثانية ١٤٣٧-٢٠١٦م.
٩. الدكتور سعيد بن علي بن وهف القحطاني، رحمة للعالمين، (بترياق الشاملة آليا). الناشر: وزارة الأوقاف العربية، بي تا ١٤٢٧هـ.
١٠. السيد سليمان الندوي، الرسالة المحمدية للعلامة، الطبعة الثانية، (١٤٣١)، دار ابن كثير.
١١. الدكتور علي محمد محمد الصلّابي، السيرة النبوية، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.
١٢. الندوي أبوالحسن علي الندوي، مختارات من أدب العرب، تعليق: أبي الفضل عبد الحفيظ البلباوي، دار ابن كثير دمشق-بيروت، الطبعة الثانية ١٣٨٦.
١٣. محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري الجعفي صحيح البخاري، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ..
١٤. محمد أحمد المبيض، نبي الرحمة، مؤسسة المختار للنشر و التوزيع القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.
١٥. محمد بن حبان بن أحمد بن حبان حاتم صحيح ابن حبان - محققا لإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، (المتوفى: ٣٥٤هـ)، ترتيب: الأمير علاء الدين، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

اعتدال الرسول (ص) في معاملته مع الأعداء والمخالفين (248)

١٧. محمد بن عيسى بن سورة، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)، سنن الترمذي ت
بشار، الجامع الكبير - سنن الترمذي، المحقق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي -
بيروت، سنة النشر: ١٩٩٨ م.